

مختصر

جامع العلوم والحكم

للإمام الحافظ ابن رجب الجنبلي

أخضرة وعلاق عليه

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا





﴿ الْحَدِيثُ الْعِشْرُونَ ﴾

■ عن أَبِي مَسْعُودِ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِي؛ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

﴿ الشَّرْحُ ﴾

* قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى»: يُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَذَا مَأْثُورٌ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَأَنَّ النَّاسَ تَدَاوَلُوهُ بَيْنَهُمْ، وَتَوَارَثُوهُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبَوَاتِ الْمُتَقَدِّمَةَ جَاءَتْ بِهَذَا الْكَلَامِ، وَأَنَّهُ اشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ؛ حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

* وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا لَمْ تَسْتَحِي؛ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» في معناه قولان:



أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعْنَى الْأَمْرِ؛ وَلَكِنَّهُ عَلَى مَعْنَى الذَّمِّ
وَالنَّهْيِ عَنْهُ. وَأَهْلُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ لَهُم طَرِيقَانِ:

١ - أَنَّهُ بِمَعْنَى التَّهْدِيدِ؛ وَالْمَعْنَى: إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَيَاءٌ

فَاعْمَلْ مَا شِئْتَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَجَازِيكَ عَلَيْهِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿اعْمَلُوا

مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٤٠﴾ [فصلت: ٤٠]،

وقوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥].

وهذا اختيارُ جماعةٍ؛ مِنْهُمْ: أَبُو الْعَبَّاسِ ثَعْلَبٌ.

٢ - أَنَّهُ أَمْرٌ، وَمَعْنَاهُ الْخَيْرُ؛ وَالْمَعْنَى: أَنْ مَنْ لَمْ يَسْتَحْيِ

صَنَعَ مَا شَاءَ؛ فَإِنَّ الْمَانِعَ مِنْ فِعْلِ الْقَبَائِحِ هُوَ الْحَيَاءُ،

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَيَاءٌ؛ انْهَمَكَ فِي كُلِّ فَحْشَاءٍ وَمَنْكَرٍ.

وهذا اختيارُ أَبِي عُبَيْدِ الْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ، وَابْنِ قُتَيْبَةَ،

وَمُحَمَّدِ بْنِ نَصْرِ الْمَرْوَزِيِّ، وَغَيْرِهِمْ، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ

عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مَا يَدُلُّ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ.



القول الثاني: أنه أمرٌ بفعل ما يشاء على ظاهر لفظه؛ وأنَّ المعنى: إذا كان الذي تريد فعله مما لا يستحي من فعله، لا من الله ولا من الناس؛ فاصنع منه - حينئذٍ - ما شئت.

وقد جعل النبي **صلى الله عليه وسلم** الحياء من الإيمان؛ كما في «الصحيحين» عن ابن عمر: أن النبي **صلى الله عليه وسلم** مرَّ على رجل وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحي، كأنه يقول: قد أضرب بك؛ فقال رسول الله **صلى الله عليه وسلم**: «دعه؛ فإنَّ الحياء من الإيمان»^(١).

وفي «الصحيحين»، عن عمران بن حصين، عن النبي **صلى الله عليه وسلم** قال: «الحياء لا يأتي إلا بخير»، وفي رواية لمسلم: «الحياء خير كله»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦١١٨)؛ ومسلم (٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٧)؛ ومسلم (٣٣).



وَأَعْلَمَ أَنَّ الْحَيَاءَ نَوْعَانِ:

أحدهما: مَا كَانَ خُلُقًا وَجِبَلَةً غَيْرَ مُكْتَسَبٍ، وَهُوَ مِنْ أَجْلِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي يَمْنَحُهَا اللَّهُ الْعَبْدَ.

والثاني: مَا كَانَ مُكْتَسَبًا مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةِ عَظَمَتِهِ، وَقُرْبِهِ مِنْ عِبَادِهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ؛ فَهَذَا مِنْ أَعْلَى خِصَالِ الْإِيمَانِ، بَلْ هُوَ مِنْ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْإِحْسَانِ.

وَقَدْ يَتَوَلَّدُ الْحَيَاءُ مِنَ اللَّهِ مِنْ مَطَالَعَةِ نَعْمِهِ، وَرُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهَا.

فَإِذَا سَلِبَ الْعَبْدُ الْحَيَاءَ الْمُكْتَسَبَ وَالْغَرِيزِيَّ؛ لَمْ يَبْقَ لَهُ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ ارْتِكَابِ الْقَبِيحِ، فَصَارَ كَأَنَّهُ لَا إِيمَانَ لَهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

